الفصل الرابع

عصر الطغاة

سقوط القدس

صور أحبار اليهود في توراتهم المزيفة ملوكهم وقادتهم بل وأنبياءهم على أنهم قتلة وسفاحون، وألفوا عنهم الأساطير الكاذبة ودونوها في توراتهم التي حرروها بأيديهم لتتفق وأطماعهم ليرهبوا بها أصحاب الأرض التي يريدون اغتصابها فكثرت أخطاؤهم. وقد جاء ذلك في التوراة «٧ فحاربوا المديانيين كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر ؛ ٨ وقتلوا معهم ملوكهم الخمسة: أوي وراقم وصور وحور ورابع، كما قتلوا بلعام بن بعور بحد السيف. ٩ وأسر بنو إسرائيل نساء المديانيين وأطفالهم، وغنموا جميع بهائمهم ومواشيهم وسائر أملاكهم. ١٠ واحرقوا مدنهم كلها بمساكنها وحصونها». ثم أضيف: «١٧ فالان اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا كل امرأة ضاجعت رجلا. ١٨ ولكن استحيوا لكم كل عذراء لم تضاجع رجلا». [كتاب لعدد؛ ٣١:٧ و٨ و٩ و١٠ و١٧ و١٨].

ورغم أن الروايات والأساطير المذكورة في التوراة لا تتفق مع صفات الأنبياء ولا مع أي قائد له مبادئ أو مع أي عرف حضاري، إلا أنها أثرت وبشدة في عقلية اليهود الحديثين وخاصة الفقراء البسطاء منهم، وأصبح سفك الدماء واحتلال أراضي الغير من تعاليم الدين اليهودي المحرف، دين الأحبار وليس الدين السماوي الذي حمل رسالته سيدنا موسى عليه السلام..!!

وتأثرا بهذا الفكر المريض كان اغتصاب اليهود لدولة فلسطين، ومحاصرة أصحاب الأرض في مدن وقرى محددة، واحتلال أورشليم القدس، وارتكاب العديد من المذابح لتحقيق الأحلام التوراتية المريضة.

مما سبق نجد أن مدينة أورشليم القدس قد مر تاريخها بمراحل متعددة، وتعرضت للاحتلال ولغزوات متنوعة، إلا أنها كانت دائما تعود إلى العرب في نهاية المطاف، في الوقت الذي لم يدخلها بنو إسرائيل أو يقيموا فيها بشكل دائم، كما يدعون في توراتهم، حتى جاءت المرحلة الأخيرة التي مهدت الطريق أمام هؤلاء الغزاة، وتمكنوا من احتلال دولة فلسطين ثم اغتصاب القدس وذلك على النحو التالي:

ففي أواخر القرن التاسع عشر حيث كانت القدس تحت الحكم العثماني، بدأت الصهيونية العالمية التي ظهرت على الساحة الدولية كفكر إرهابي جديد متعصب، بدأت بقيادة حملة سياسية واسعة النطاق تهدف إلى تهجير اليهود من جميع أنحاء العالم إلى فلسطين، من اجل الانتشار فيها، والحرص على التواجد بكثافة في القدس الغربية، أو في حي اليهود القديم المجاور للمدينة المقدسة.

إلا أن الدولة العثمانية قاومت الحركة الصهيونية ومنعت هجرة اليهود إلى فلسطين، وظل الحال كذلك حتى وقع الاحتلال البريطاني لفلسطين.

ففي عام ١٩١٧ دخل الجنرال البريطاني اللنبي فلسطين واحتل مدينة أورشليم القدس بعد انسحاب القوات التركية، ومنذ ذلك اليوم وسمح البريطانيون بهجرة اليهود إلى فلسطين، ثم صدر وعد بلفور الشهير، كما وقفوا في وجه المقاومة الفلسطينية مساندين الغزوات اليهودية المتتالية، وقبل انسحابهم مكنوهم من الأرض.

وفي عام ١٩٤٧ صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية وعبرية، وتمكن اليهود المهاجرين من نصف القدس

الغربي، وبعد ذلك صدر قرار معيب قانونا من الأمم المتحدة بالاعتراف بدولة إسرائيل.

وتوالت الأحداث، ووقعت أول الحروب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨، وتحالف العالم الغربي المسيحي مع اليهود ضد العرب المسلمين.

وفي ٢١ أغسطس عام ١٩٦٩ دبر اليهود المتطرفون، بإيعاز من حكومتهم حريقا في المسجد الأقصى بهدف هدمه تمهيدا لبناء «هيكل سليمان» المزعوم لاستكمال إحدى الأساطير التوراتية الكاذبة. ثم تعرض المسجد الأقصى إلى العديد من الاعتداءات منذ ذلك الوقت، بعد أن تجرءوا عليه، حتى بلغ الأمر قتل المصلين المسلمين وقت أداء الصلاة.

ومع بداية حرب عام ١٩٦٧ قامت إسرائيل في ٧ يونيو باحتلال القدس الشرقية حيث يقع المسجد الأقصى وقبة السخرة، وبقرار إسرائيلي من جانب واحد مخالف للشرعية الدولية، أعلنت من خلال برلمانها «الكنيست» في ٢٧ يونيو عام ١٩٦٧ ضم القدس الشرقية وتوحيد شطري المدينة واعتبارها عاصمة أبدية لإسرائيل.

ومن هنا بدأ الصراع العربي الإسرائيلي يأخذ شكلا مختلفا أكثر تعقيدا من مجرد احتلال أراضي الغير، أو تغيير معالم أراضي واقعة تحت الاحتلال العسكري، وجميعها أمور مخالفة لاتفاقيات جنيف الخاصة بالأراضي الواقعة تحت الاحتلال، وقرارات مجلس الأمن الدولي التي رفضت احتلال إسرائيل للقدس الشرقية.

التوسع الاستيطاني

ومن أجل تهويد المدينة المقدسة وبسرعة لفرض الأمر الواقع على العرب، قامت إسرائيل بخطوات متتالية كان أهمها بناء المستعمرات

بسرعة متناهية، داخل المدينة ومن حولها، وربط المدينة بشبكة الطرق الرئيسية الإسرائيلية، وذلك من أجل وضع المدينة تحت الحصار الإسرائيلي الرسمي والكثافة السكانية اليهودية اللتين تقللان من نسبة التواجد السكاني الفلسطيني.

وقد تم ربط هذه الإجراءات بعمليات تغيير التركيبة الديموجرافية بزيادة نسبة اليهود على العرب، وإعطاء الجنسية الإسرائيلية بالإكراه للفلسطينيين السكان الأصليين للمدينة، عرب ٤٨.

أما عن أسلوب التطهير السكني، فقامت إسرائيل بهدم حي المغاربة، وهدمت ١٦٠ منزلا عربيا، وصادرت ٦٠٠ منزلا آخر، وأخلت ما يزيد على ٦٥٠٠ مواطن فلسطيني من منازلهم بالقوة، وذلك فقط خلال السنوات من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٧، كما تم الاستيلاء على كل الأراضي الفضاء، وأراضي الأوقاف الإسلامية والمسيحية، وأقيم عليها مستعمرات يهودية.

أما على مستوى التواجد الرسمي الحكومي، فقد انشأ اليهود الجامعة العبرية في القدس الشرقية بمجرد أن دخلت قواتهم المدينة، كما جرى تحويل مبنى محافظة القدس في شارع صلاح الدين الأيوبي إلى مقر وزارة العدل الإسرائيلية، أما مبنى محكمة القدس العربية فتحول إلى المحكمة المركزية الإسرائيلية.

كما تم الاستيلاء على مبنى البلدية الفلسطيني وتحويله إلى البلدية المركزية الإسرائيلية، وكانت النتيجة احتلال ٢٠٪ من مساحة البلدة القديمة في غضون الأيام الأولى من الاحتلال.

وهكذا.. ومن خلال ما تقدم نجد أنه لا علاقة تاريخية أو دينية لبني إسرائيل أو للدين اليهودي بمدينة أورشليم القدس قبل سيدنا

موسى عليه السلام، وأن تواجدهم في فلسطين لم يكن إلا على فترات زمنية متقطعة قصيرة لا يؤخذ بها في عمر وتاريخ الممالك والشعوب.

كما أن مختلف الدراسات الأثرية التي أجرتها جهت متعددة أكدت جميعها أن أحدا من بني إسرائيل لم يسكن مدينة «يبوس» أورشليم القدس إلا بعد سيدنا موسى عليه السلام بأكثر من ٣٠٠ سنة، وكانت إقامتهم عرضية وغير مرغوب فيها من الفلسطينيين أصحاب المدينة القدامى الأصليين.

إذن فمدينة أورشليم القدس مدينة عربية نشأة واسما وشعبا، وهي أيضا مدينة إسلامية مقدسة باركها الله سبحانه وتعالى، ليس فقط الحرم الشريف والمسجد الأقصى وقبة الصخرة إنما كل ما حولها.. لذلك فإذا كانت حقا للفلسطينيين، بحكم الأصل والتاريخ، فهي حقا أيضا لكل المسلمين.. ولا لأحد غيرهم.

سماحة الإسلام في القدس

تحتل مدينة القدس مكان الصدارة بين كل مدن العالم قديمها وحديثها من حيث الأهمية الدينية والتاريخية، الأمر الذي جعل منها مسرحا دائما للحروب والنزاعات من أجل التواجد فيها والاستيلاء عليها، وجعلها في نطاق طائفة من الطوائف دون غيرها.

إلا أن الواقع والتاريخي يؤكد كل منهما على أن المدينة عربية نشأة وبقاء على مر العصور والأزمنة بغض النظر عن من كان يحكمها ويحاول السيطرة عليها، وبغض النظر أيضا عن الدين الذي كن يعتنقه أصحابها العرب الكنعانيون.

فأورشليم القدس هي المدينة التي لجأ إليها سيدنا موسى عليه

السلام، وبعث على مشارفها سيدنا عيسى عليه السلام، والتي عرج منها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماوات العلا في رحلته للقاء رب العالمين، منفردا بهذه الرحلة المقدسة الميمونة بإذن الله، فالقدس اغتصب اليهود حكمها من أصحابها العرب فترة محددة من الزمن، ثم حكمها المسيحيون فترة محددة من الزمن أيضا، ثم دانت للإسلام حتى يومنا هذا.

واليوم عندما يدعي يهود إسرائيل ملكيتهم للمدينة فانهم يغالطون في ادعائهم، فهم ليسوا إلا غزاة يسعون إلى احتلال أراضي الغير، تماما كما كان حالهم وقت أن كانت تحت حكمهم، فهم قوم وافدين دخلاء غرباء عن أهلها الأصليين.

ومن تاريخ أورشليم القدس، ومن مبادئ الإسلام وسماحته في التعامل مع أهل الكتاب، نورد فيما يلي مواقف ثلاثة تبين كيف تعامل أصحاب كل ديانة من الديانات السماوية الثلاثة مع أهل القدس العرب الأصليين.

أولا :يهود القدس [1]

كان السيد المسيح عليه السلام يعرف اليهود معرفة جيدة، وخاصة يهود القدس، إذ كان يكرههم لكثرة معاصيهم لله الواحد، ولا يأتمنهم على نفسه ولا على المؤمنين ممن اتبعوه، فقال وهو يحاور المرأة السامرية : «أنتم تعبدون ما تجهلون، ونحن نعبد ما نعلم، لأن الخلاص هو من عند اليهود..» {إنجيل يوحنا ٤:٢٢}.

---

(١) راجع أكثر تفصيلا ، وجيه أبو ذكري «القدس عربية عبر القرون» سلسلة مكتبة فلسطين، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر ـ ١٩٦٧ م.

عرف كهنة وحاخامات اليهود أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام هو رسول من عند الله سبحانه وتعالى، فأرادوا أن يتخلصوا منه، خوفا من ضياع مكاسبهم الدنيوية التي اكتسبوها بالغش والخداع، والتي كانوا يتمتعون بها في عهد الحكم الروماني وقت أن بعث الرسول عيسى عليه السلام.

فقام اليهود بالدسيسة ضد سيدنا عيسى عليه السلام وتوجيه الاتهامات له أمام الحاكم الروماني، مدعين بأنه ينادي بالثورة ضد الوجود الروماني، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل.

وبعد عودة السيد المسيح عيه السلام إلى القدس أجتمع الكهنة اليهود في معبدهم وقرروا ضرورة التخلص من السيد المسيح عليه السلام بسرعة سواء بقتله أو بإدانته قانونيا. فأرسلوا جاسوسا يهوديا لهم أدعي أنه من تلاميذه ليعرف مكانه وهو «يهوذا سمعان الاسخربوطي» الذي حضر العشاء الأخير للسيد المسيح مع تلاميذه، وسارع إلى الكهنة اليهود وأخبرهم بمكانه، فتوجه الكهنة ومعهم نفر من الجنود وقبضوا على السيد المسيح عليه السلام إلى أخر القصة الدينية المعروفة.

وتصور اليهود أنهم تخلصوا من نبي الله عيسى عليه السلام، إلا أن تعاليمه السمحاء ودعوته للسلام والمحبة والأخلاق انتشرت مهددة الوجود اليهودي، ونمت هذه التعاليم بين سكان القدس العرب بسرعة كبيرة.

وبعد السيد المسيح عليه السلام، عاد الصراع بين العرب أصحاب القدس واليهود الموجودين في المدينة، وكان ذلك بمثابة امتداد للصراع التاريخي السابق عندما كان الكنعانيون العرب يحاربون اليهود الغزاة من اجل بقاء القدس مطهرة منهم.

وفي خلال هذا الصراع حدثت حادثة غريبة، أتهم فيها اليهود أحد جنود الحاكم الروماني بأنه أهان اليهود ومراسيمهم الدينية، وقرروا أن يثوروا ضد الحاكم الروماني، فجمع الحاكم جنوده لمواجهة ثورة اليهود المحتملة، إلا أن اليهود كعادتهم أحسوا بالخطر فهربوا خارج المدينة دون قتال، ومات منهم أعداد كثيرة أثناء هروبهم دون أن يتعرض لهم أحد.

ثم حدث نزاع بين اليهود والسامريين، فوقف الحاكم الروماني إلى جانب السامريين، الذين انتصروا على اليهود. ولم يقبل اليهود بهذه الهزيمة فلجئوا إلى الخديعة والغدر، وذهب نفر منهم إلى قيصر روما الذي صدق أكاذيبهم وعزل حاكم القدس وجرده من رتبه العسكرية.

بعد هذا الانتصار اليهودي تصور الحاخامات اليهود أن السيطرة دانت لهم على القدس، فبدءوا ينشرون الذعر والفوضى والقتل والنهب والسلب مستخدمين كافة وسائل الإرهاب، وعاشت القدس في حالة من الفوضى لم تشهدها من قبل.

ودارت معارك بين العرب أصحاب المدينة واليهود، إلا أن اليهود بالقتل والإرهاب تمكنوا من السيطرة على المدينة.

ثم كونوا بعد ذلك مجموعات إرهابية مقاتلة لتقف ضد الرومان، لعلمهم أن الرومان لن يقبلوا بالفوضى التي حلت بالمدينة نتيجة التجاوزات اليهودية.

وفي عام ٦٨ من الميلاد، جمع القائد الروماني جيشا لإخضاع اليهود في القدس، ووضع نهاية للفوضى والنهب والسلب الذي قام به حاخامات القدس، وكان القائد اسمه «تيطس»، وعندما علم اليهود

باستعدادات الجيش الروماني، وقع انقسام في صفوفهم نتيجة الخوف وعدم الرغبة في الحرب، وتكون فريقان فريق جون وفريق سيمون، وتقاتل الفريقان اليهوديان، وانتهز الرومان الفرصة ودخلوا المدينة وهدموا الحي اليهودي على من فيه عام ٧٠ من الميلاد، وتتبع القائد الروماني فلول اليهود في الجبال والكهوف وقضى على عدد كبير منهم، ورحل من تبقي إلى مصر.

وعن هذه الواقعة قال المؤرخ اليهودي «يوسيفوس» إن اليهود قد وصلوا إلى هذه المرحلة من الذل والمسكنة، وذلك بسبب أنانيتهم، فهم لا يحبون النظام ولا يطيعون الأوامر. وكانت المدينة المقدسة يطلق عليها في وجود اليهود (مدينة الدسائس والفتن والإرهاب).

وكانت النتيجة أن حرم على اليهود دخول القدس، بينما سمح الحاكم الروماني للمسيحيين بدخول المدينة، وظل اليهود خارج القدس، وإن كانوا قد حاولوا دخلوها خلسة مرات عديدة، إلا أنهم كانوا يفشلون دائما، وفي عام ١٣٥ من الميلاد رحل جميع اليهود من جميع أرض فلسطين، وذهبوا إلى مصر وطرابلس الغرب وسوريا وإيطاليا واليونان وبعض الدول الأوروبية الأخرى وبعض الدول الآسيوية.

ثانيا :الإسلام في القدس:

أنتهي الوجود اليهودي من القدس، وأصبحت في عهد الإمبراطورية البيزنطية تضم العرب المسيحيين والوثنيين.

وجاءت الرسالة المحمدية، في عهد الإمبراطور البيزنطي «هرقل» صاحب الانتصارات الكبيرة ضد الفرس.

وبعد محاولة إسلامية لم يكتب لها النجاح لتحرير القدس، قرر الخليفة أبو بكر الصديق رضى الله عنه أن يجمع جيشا كبيرا لتحرير فلسطين والقدس من يد البيزنطيين، لكنه لم يدرك غايته، إلا أن الخليفة عمر الفاروق رضي الله عنه أكمل المسيرة وتحركت القوات العربية الإسلامية بقيادة أربعة من القادة العرب هم : عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيده عامر بن الجراح وشرحبيل بن حسنة.

وانتصر العرب المسلمون في جميع المعارك، وتم حصار القدس لمدة أربعة أشهر بقيادة أبن الجراح الذي خير الروم بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، فطلبوا القتال، واستمر القتال في ظل الحصار أربعة شهور، فسلموا أخيرا. وطلبوا شرطا واحدا للتسليم أن يتم تسليم القدس للخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

ودخل عمر القدس واجتمع بالناس، فقالوا له عن الأهوال التي شاهدوها من الحصار، وبكى عمر على ما أصابهم من الهول نتيجة للقتال والحصار، وطلب فورا حضور بطريرك المدينة، فخرج البطريرك من كنيسة القيامة ومن خلفه القساوسة فحياهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وتحدث معهم في شروط التسليم، وطلبوا منه «عهد أمان».

فكتب لهم العهد الذي أطلق عليه فيما بعد «العهدة العمرية» وكان نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل «ايلياء» من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها. أنه لا تسكن

كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من خيرها، ولا من صلبهم، ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن باليباء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم، فهو آمن على نفسه وماله، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم آمن، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فأنهم آمنون على أنفسهم ومالهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن رجع إلى أهله فانه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصدوا حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية:

كتب وحضر سنة خمس عشرة من الهجرة.

وشهد على ذلك خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان.

وتوجه عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى كنيسة القيامة وجلس مع البطريرك «صفرنيوس» وتحدث معه في شئون الدين والدنيا، وكان معنى هذا إعطاء الطائفة المسيحية في القدس أكبر قدر من الأمان، ذلك أن خليفة المسلمين دخل كنيسة القيامة وجالس البطريرك بما يعني إباحة دخول المسلمين للكنائس لكونها بيوتا يعبد فيها الله الواحد الأحد، وأثناء ذلك جاء وقت الصلاة، فنظر البطريرك إلى عمر وقال له: مكانك صل.

إلا أن عمر رفض وخرج خارج الكنيسة وأدى الصلاة في الخارج، وعاد ليقول للبطريرك:

- إنني لو أديت الصلاة هنا في هذه الكنيسة فربما جاء المسلمون من بعدي واستولوا عليها بحجة أنني أديت الصلاة بداخلها، وأنا لا أريد لكم هذا. وكان ذلك قمة التسامح الديني بين المسيحيين والمسلمين.

ثم أمر عمر رضى الله عنه بتنظيم مدينة القدس من الناحية الإدارية، فأقام الأمن، ونظم البريد والتجارة.

وعاشت القدس مسلمة عربية، تصان فيها الأديان والأماكن المقدسة، منتقلة من عصر إلى عصر، حتى جاءت الحروب الصليبية.

ثالثا: سقوط مملكة القدس الصليبية:

في ٢ أكتوبر عام ١١٨٧ دخل صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس محررا لها بعد استعمار أوروبي استمر ٨٨ عاما، وقد جاء تحرير المدينة المقدسة بعد انتصاره الحاسم في موقعة «حطين» على جيوش أوروبا الغازية بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك أنجلتري وفيليب أغسطس ملك فرنسا وعشرات من أمراء المقاطعات الأوروبية.

ولم يكن انتصار صلاح الدين راجعا إلى تفوق في القوة العسكرية والعتاد الحربي، وإنما كان راجعا وبالدرجة الأولى إلى الأيمان بالله والإصرار على استرجاع الحق المغتصب.

وبقراءة التاريخ نجد أن الحملات الصليبية لم تكن إلا حملات استعمارية لغزو الأرض والاستيلاء عليها متخذة من الدين ستارا بدأت فكرته بإيعاز من بابا روما «أربان الثاني»، الذي دعا في

مجلس «كلير مونت» عام ١٠٩٥ إلى ضرورة احتلال مدينة القدس وفلسطين وطرد العرب والمسلمين منها بدعوة اضطهادهم للمسيحيين، واعتدائهم على الحجاج المسيحيين القادمين إلى الأماكن المقدسة المسيحية.

صادفت هذه الدعوة هوى في نفوس العامة، وجاءت ملبية لأطماع الملوك والنبلاء التوسعية ورغبتهم في السيطرة على أراضي جديدة، رغم مخالفة الدعوة للواقع.

هذه الدعوة إذ ما أطلقت الآن، فكان من المحتم وصف العرب والمسلمين أصحاب الأرض بالإرهابيين، غير أن مصطلح إرهاب لم يكن مأخوذا به في تلك الأزمان بنفس القدر المبالغ فيه الآن.

وبعد إعادة كتابة التاريخ بصدق وأمانة تبين أن المسلمين كانوا ملتزمين بالعهد الذي قطعه خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عام ٦٣٨ بالحفاظ على كنائس القدس وصيانتها وتأمين سلامة الحجيج.

وهكذا بنيت هذه الحملات الاستعمارية على سبب واه لا أساس له في الواقع، غير إخفاء النوايا الاستعمارية لدى ملوك ذلك العصر، حيث كان الفكر الاستعماري مسيطرا على ساسة أوروبا، إضافة إلى الخوف من انتشار الإسلام الذي يعد العدو رقم واحد لدول أوروبا المسيحية.

وحتى نتعرف على سماحة الإسلام وأنه رسالة عالمية متحررة من لعنصرية تقوم على مبدأ السلام نعقد مقارنة سريعة بين الأحداث التي صاحبت قيام مملكة القدس الصليبية وأحداث تحرير القدس من الاستعمار الغربي.

ففي عام ١٠٩٩ توجهت الجيوش الأوروبية إلى مدينة القدس بقيادة «تانكرد، وريموند، وجودفرى» وعقدوا اتفاق سلام مع أمير المدينة الفاطمي على أن يسلم المدينة دون قتال مقابل تأمين حياة أهلها إذ ما لجئوا إلى المسجد الأقصى.

ونفذ الاتفاق لكن من جانب واحد، وتم تسليم المدينة في ١٥ يوليو عام ١٠٩٩ ودخلت الجيوش الغازية وأبادت قرابة ٨٠٪ من السكان دون تفرقة بين شيخ أو طفل أو امرأة أو رجل، ثم أعلنوا قيام مملكة القدس الصليبية.

وعن هذه المجزرة البشرية يقول «شحاده الخوري» في كتابة (تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية) صفحة ٧٠: «أمر الصليبيون الأشخاص الذين بقوا أحياء من العرب أن يجمعوا جثث موتاهم ويحرقوها بالنار، وبعد ذلك قتلوا هؤلاء أيضا، وهي قسوة لا تتفق أبدا والدين المسيحي، الذي يدعون أنهم جاءوا لنصرته».

أما المؤرخ الفرنسي «ميشو» فقال في كتابه (تاريخ العرب والتمدن الإسلامي) : «كان المسلمون يذبحون كالأغنام في الشوارع والمنازل، ولم يجد أهل القدس محلا أمينا يعتصمون به، فألقى بعضهم نفسه من فوق الأسوار، وازدحم الآخرون في القصور والمساجد والحصون، ولكن ذلك لم يحمهم، إذ أن الصليبيين قد حاصروا جامع عمر حيث يعتصم فيه المسلمون وجددوا المذابح بوحشية».

وقال «هرسى أمرسن» في كتابه (حجة إلى فلسطين): «لا شك أن الصليبيين قد ارتكبوا في الأرض المقدسة خطايا لا تغتفر، مخالفين بذلك الأهداف السامية التي حفزتهم لفتحها، وأنهم قد انحطوا إلى

درجة من التهتك الممزوج بالأنانية والحقد وسفك الدماء، فانقلب جهادهم إلى نهب وسلب وقتل وتدمير، حتى أنهم في أنطاكيا وهم في طريقهم إلى القدس اقترفوا أعظم أثم دونه التاريخ في سجل السكر والدعارة والفجور، إذ كانوا يضعون أجساد المسلمين في أسياخ حديدية ويشونها على النار، وأما ما فعلوه في بيت المقدس، عندما احتلوها، فقد ظلوا يذبحون المسلمين ثلاثة أيام كاملة، وقيل، أن المسلمين خسروا ١٠٠ ألف ـ شهيد ـ في هذه المعركة».

وتعد هذه المذبحة واحدة من أكثر الأعمال وحشية ضد الإنسانية في التاريخ، الأمر الذي دفع بابا روما الحالي إلى تقديم اعتذار! للشعب الفلسطيني وللشعوب الإسلامية عن تلك الأحداث الدامية أثناء زيارته الأخيرة لبلاد الشام.

وفي المقابل عندما دخل صلاح الدين مدينة القدس أعطى الأمان لمن وجد فيها من جيوش الفرنجة المهزومة أو من المدنيين الأوربيين، وقبل الفدية لتسليمهم ـ حيث كان هذا هو النظام المتبع في ذلك الوقت في تبادل الأسرى ـ بل وفعل أكثر من هذا إذ قام بدفع الفدية من ماله الخاص عن الأسرى الذين عجزوا عن دفعها، وهؤلاء بلغت أعدادهم ٧٠٠٠ أسير عادوا إلى بلادهم آمنين.

وانتشر جنود صلاح الدين في جميع أنحاء المدينة المقدسة لمحافظوا على النظام، ويمنعوا قيام العرب المسلمين من الانتقام من الجنود الاوروبيين.

وجاء أحد رفقاء صلاح الدين وقال له: يا صلاح، اهدم كنيسة القيامة حتى لا يعود الصليبيون مرة أخرى بحجة الحفاظ عليها، كما عادوا من قبل..

فقال صلاح الدين لصديقه: لا هذا لن يكون، فنحن جئنا لنحافظ على الأديان.

والجدير بالذكر أن الأقباط وخاصة المصريين منهم قد لاقوا اضطهادا كبيرا على أيدي الصليبيين، لذلك شاركوا جيوش صلاح الدين في القتال ضد الصليبيين، وبعد الانتصار دخلوا القدس وعاشوا فيها ومازالوا حتى الآن.

ما أريد أن أقوله أن الإسلام بتعاليمه يفرض على المسلم معاملة أخيه الإنسان معاملة حسنة أيا كانت ديانته أو عقيدته، وألا يعتدي عليه لا في أوقات السلم ولا في أوقات الحرب، أي أن ما يطلق عليه بالإرهاب اليوم محرم على المسلمين ويتعارض تماما مع كل تعاليم الدين الإسلامي.

أردت أن أقول ذلك وفي أيجاز شديد لمن قالوا أثناء أحداث ١١ سبتمبر التي أهدرت الكرامة الأمريكية أنهم لا يعرفون شيئا عن الإسلام، وهذا راجع ليس لتقصير من المسلمين وإنما لرفض أصحاب الديانات الأخرى محاولة التعرف على خاتم الأديان السماوية.

وهنا لا يفوتنا أن نتساءل: أين كان اليهود من كل هذه الأحداث ؟ ببساطة لم يكن لهم وجود يذكر أو تواجد مؤثر على الساحة الفلسطينية.

كما لا يفوتني أن أقول أن هناك أوجه شبه وتطابق كبيرين بين ظروف وملابسات قيام مملكة القدس الصليبية وبين قيام دولة إسرائيل، فكلاهما جاء بهدف الاستعمار وامتلاك الأرض بالقوة وتفريغها من سكانها واغتصاب مدينة القدس الشريف، وكلا الدولتين قامتا على ميراث كبير من العنف والكراهية والإرهاب.

وإذا كانت مملكة القدس الصليبية فشلت في البقاء أو حتى في التآلف مع الشعب الفلسطيني، فإن إسرائيل مازالت فاشلة في التآلف مع الشعب الفلسطيني ومع الدول العربية المحيطة بها، وطبقا لمجريات الأحداث التي سجلها التاريخ فاستعمار إسرائيل للقدس الشريف لن يدوم طويلا، هذا في الوقت الذي بقي فيه الإسلام، على مر العصور، وسوف يظل باقيا لأنه يسمح دائما بحرية كبيرة لكل العناصر بممارسة عقائدها الدينية دون خوف أو إرهاب.